لا إله إلا الله عنوان التوحيد

وللتوحيد الذي جاء به الرسل عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة ، هذا العنوان هو كلمة « لا إله إلا الله » التي تسمى « كملة التوحيد » أو « كلمة الإخلاص » أو « كلمة التقوى » .

وهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ، وإثباتها لله وحده ، فهو وحده الإله الحق ، وما عداه مما عبد الناس في مختلف العصور فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة والأوهام ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (الحج:٦٢).

والإله هو : المعبود بحق ـ أي المحبوب المطاع ، الذي يستحق أن يُعبد ـ وذلك لما اتصف به من صفات الكمال ، التي تقتضي أن يُخص بنهاية الحب ونهاية الخضوع ، وهما معنى العبادة ، فإن الإله ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ : هو الذي تألهه القلوب بحبها ، وتخضع له ، وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتُنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في

مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه . . وليس ذلك إلا الله وحده .

ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أصدق الكلام وأفضله ، وكانت رأس الأمر ، وأحسن الحسنات ، جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله » .

• التوحيد هو المهمة الأولى للرسل :

ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعًا ، كان هو العنصر الأول في دعوات الرسل جميعًا من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام .

إن المهمة الأولى للرسل الذين بعثهم الله هداة لعباده تتمثل في أمرين أساسيين كلاهما لازم للآخر ومكمل له :

الأول : الدعوة إلى عبادة الله وحده .

الثاني : الدعوة إلى اجتناب الطاغوت .

وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦).

ويقول مخاطبًا النبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥).

ولهذا نجد أول نداء يوجهه كل رسول إلى قومه : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف:٥٩) . . هكذا ذكر القرآن عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم .

هكذا نجد نوحًا أول رسل الله إلى المشركين يقول لقومه : ﴿ إِنَّنِى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾(هود:٢٥،٢٦).

والمسيح عيسى ابن مريم الذي اتخذه قومه بعد ذلك ربًّا يعبد ، يقول : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة:٧٢).

أما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كانت دعوته إلى التوحيد واجتناب الطاغوت أبرز وأقوى وأعمق وأخلد ، كما يبدو ذلك واضحًا في القرآن والسنة ، وكما يتجلى في شعائر الإسلام وشرائعه وآدابه وأخلاقه .

• التوحيد شعار الإسلام :

وكان من مظاهر عناية الإسلام الكبرى بالتوحيد أن جعله شعارًا له يميزه عن كل الديانات سواء منها الوثنية والكتابية المحرفة ، وأصبح أشهر ما يُعرف به الإسلام أنه « دين التوحيد » ، وصار عنوان الإسلام يتجسد في كلمتين أو جملتين من شهد بهما فقد دخل باب الإسلام . أولى هاتين الكلمتين : « شهادة أن لا إله إلا الله » ، والثانية : أن يشهد « أن محمدًا رسول الله » .

وأصبح إعلان هذا التوحيد شعيرة يومية ، بل أكثر من يومية ، حيث يكررها الفرد المسلم في صلواته المفروضة فقط تسع مرات في تشهده ، وخمس مرات في إقامته ، ولم يكتف الإسلام بذلك ، بل شرع الأذان في كل يوم خمس مرات ؛ ليعلن على الدنيا كلها من فوق منائره بصوت جهير : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

ومن روائع الإسلام أنه سن للأب المسلم أن يستقبل مولوده بالأذان الشرعي ، يؤذن به في أذنه اليمنى ؛ لتكون كلمة التوحيد أول ما يطرق سمعه من أصوات الناس .

فإذا عاش في الدنيا ما قُدِّرَ له ، ثم حضرته الوفاة ، كان على أوليائه وأقاربه أن يلقنوه كلمة التوحيد :« لا إله إلا الله ».

وبهذا يكون أول ما يستقبل به المسلم نور الحياة هو كلمة التوحيد ، وآخر ما يودع به الحياة هو كلمة التوحيد ، وما بين مهد الطفولة وفراش الموت ليس له مهمة غير إقامة التوحيد ، والدعوة إلى التوحيد .

● **التوحيد حق الله على العباد :**

ومما يؤكد هذا المعنى أن الرسول ﷺ بيَّن أن التوحيد هو حق الله على عباده الذي لا يجوز التفريط فيه،ولا الغفلة عنه..

روى الشيخان البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي :« يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا » . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس؟ قال : « لا تبشرهم فيتكلوا ».

والسر في هذا الحق أن الله تعالى خلق الإنسان من عدم ، وأمده بنعم لا تُحصى ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار لخدمته ، وآتاه العقل ، وعلَّمه البيان ، فمن حق هذا الخالق الرازق ، المنعم المعلم ، الرحمن الرحيم ، أن يُشكر فلا يُكفر ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُطاع فلا يُعصى .

ولهذا كان بيان هذا الحق وتأكيده هو أول وصايا القرآن ، كما في الآية التي تسمى آية الحقوق العشرة المبدوءة بقوله تعالى :﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (النساء:٣٦) ... الآية . وكما قال في الآيات المحكمة المشتملة على الوصايا العشر في سورة «الأنعام» : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الأنعام:١٥١).. الآيات . ومثل ذلك وصايا الحكمة في سورة «الإسراء» المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء:٢٢،٢٣) . . . الآيات .

• التوحيد رسالة المسلم في الحياة :

وإذا كان المسلم يستقبل حياته بالتوحيد ويودعها بالتوحيد ، فإن وظيفته بين مهد الطفولة وفراش الموت ، هي إقامة التوحيد ، والدعوة إلى التوحيد .

ويقول الله تعالى في بيان الوظيفة التي خلق لها المكلفين من الإنس والجن :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾(الذاريات:٥٦،٥٧).

بينت الآية الكريمة أنه سبحانه خلقهم ؛ ليعبدوه وحده لا شريك له ، فهذه هي الغاية والحكمة من خلقهم . لم يخلقهم الله تعالى ؛ ليأكلوا ويتمتعوا ، كما تأكل الأنعام ، دون أن يعرفوا الله جل شأنه ، ويقدروه حق قدره ، ويخصوه بالعبادة ضارعين خاشعين .

فمن عاش عمره من غير أن يحقق هدف وجوده ووظيفة حياته ، وهي عبادة الله وحده ـ فقد انحط عن مرتبة المكلفين العقلاء ، وأصبح كالأنعام أو أضل سبيلاً .

• التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم :

والتوحيد كما هو رسالة المسلم في الحياة ، هو أيضًا رسالة الأمة المسلمة إلى العالم كله ، وإلى الأمم جميعًا . ولهذا كان النبي ﷺ يختم دعوته إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض وأمرائها ، بهذه الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقد كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، ومن تبعهم بإحسان يعرفون هذه الرسالة وواجبهم نحوها ، وحين سأل رستم قائد الفرس ربعى بن عامر في حرب القادسية : من أنتم؟ وما مهمتكم؟ أجابه بقوله :« نحن قوم بعثنا الله ؛ لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

بماذا يتحقق التوحيد؟

إن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، وعني الإسلام بتثبيته وتأكيده وحمايته - لا يتحقق وترسخ جذوره وتمتد فروعه ، إلا إذا توافرت له العناصر الآتية :

العنصر الأول : إخلاص العبودية لله وحده .

العنصر الثاني : الكفر بكل الطواغيت والبراءة ممن عبدها أو والاها من دون الله .

العنصر الثالث : اتقاء الشرك بكل ألوانه ومراتبه ، وسد المنافذ إليه .

أولاً - إخلاص العبودية لله :

أما إخلاص العبودية لله تعالى فمعناه : إعطاء الألوهية حقها الكامل من التعظيم والمحبة والخضوع المطلق ، وذلك يثبت بأمور ثلاثة :

١- ألا يبغي الإنسان غير الله ربًّا يعظمه كما يعظم الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام:١٦٤). فكل ما اتخذه الناس من أرباب عبدوها أو عظموها من دون الله أو مع الله يجب أن يسقط

obeikandl.com

ويزول سواء أكانت أربابًا من الحجر أم من البشر ، ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

٢- ألا يتخذ غير الله وليًّا يحبه كحب الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ١٤).

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

إلى أن قال تعالى في شأنهم : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: ١٦٧).

والمعنى : أنهم يحبون أندادهم وأولياءهم حبًّا ممتزجًا بالخضوع والخوف والتعظيم الذي لا يجوز أن يكون إلا لله .

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا ولم يدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ وكيف بمن أحب الند وحده ولم يحب الله؟!

إن مقتضى التوحيد أن يخلص المرء حبه لله ، ولا يتخذ وليًّا ولا ندًّا يحبه كحب الله ، فالولاية لا تكون إلا لله : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى:٩).

٣- ألا يبتغي غير الله حكمًا ، يطيعه كما يطيع الله ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام:١١٤).

وذلك أن الذي له حق الحكم في شئون عباده والتشريع لهم في أمور دينهم ودنياهم إنما هو الله وحده ، العليم بخلقه ، الرحيم بهم ، الخبير بما يصلحهم وما يفسدهم ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤).

ومن هنا قرر القرآن الكريم أن الحكم - بمعنى التشريع - ليس إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٤٠).

كما اعتبر القرآن التحاكم إلى غير الله ورسوله خروجًا عن حقيقة الإيمان ، ودخولاً في طاعة الشيطان : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (النساء: ٦٠، ٦١).

ثانيًا - الكفر بالطواغيت :

كان العنصر الأول في تحقيق التوحيد هو إخلاص العبودية لله ، وإعطاء الألوهية حقها من التعظيم والمحبة والطاعة التي لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه .

أما العنصر الثاني ، فهو الكفر بالطواغيت والبراءة من كل من عبدها أو والاها من دون الله ، حتى إن القرآن الكريم قدَّم أحيانًا الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ، حُرم ماله ودمه ، وحسابه على الله » . (رواه مسلم).

فلم يجعل الإقرار بكلمة التوحيد ، عاصمًا للدم والمال ، حتى يضم إليه الكفر بما يُعبد من دون الله .

ذلك أن الأشياء تتميز بأضدادها ، فالإيمان بالحق لا يتميز ويتحقق إلا بالكفر بالباطل ، والبراءة من أهله .

ولهذا أعلن إمام الموحدين ـ إبراهيم عليه السلام ـ براءته من آلهة قومه وأصنامهم وعداوته لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ (الزخرف:٢٦،٢٧). وقال سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة:٤).

وبهذا نعلم أن التوحيد الحق لا يتم إلا إذا انضم إلى الإيمان بالله وعبادته ، الكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه ، ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعًا إلى قومهم ما عرفنا من قبل : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦).

ولكن ما معنى الطاغوت ؟

الطاغوت كلمة مشتقة من « الطغيان » وهو مجاوزة الحد . وقد اختلفت عبارات السلف في تحديد معناه ، فقال عمر رضي الله عنه : الطاغوت : الشيطان . وقال جابر رضي الله عنه : الطواغيت : كهان كانت تنزل عليهم الشياطين . وقال مالك : الطاغوت : كل ما عُبِدَ من دون الله .

وهذه الأقوال تُذكر أمثلة للطاغوت ، ولكنها لا تحصر كل أفراده . وأضبط تحديد لمعنى الطاغوت ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله ، قال : « الطاغوت » كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

ثالثًا - اتقاء الشرك والحذر منه :

وهذا هو العنصر الثالث لتحقيق التوحيد ، وهو يقتضي معرفة أنواع الشرك كله أكبره وأصغره، جليه وخفيه ، والتحرر من كل شائبة للشرك ، والحذر من منافذه ومداخله . إن الشيء - كما قلنا - لا يتميز إلا بضده ، فلهذا لا يُعرف التوحيد خالصًا متميزًا إلا بمعرفة ضده وهو الشرك .

فما هي حقيقة الشرك؟

* * *

obeikandl.com